﴿فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ١٥﴾ [فصلت: 15]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تفصيلُ القول عمّا يخصُّ كلَّ طائفةٍ

بعدَ أن نصَّت الآيةُ السّابقة على ما جمع بين قوم عادٍ وقوم ثمودَ من الكفر المُطلَق والجحودِ البَيِّن، أفردت هذه الآيات كلَّ طائفةٍ منهما بذكرِ ما يخُصُّها من الجنايات والمعاصي المؤسَّسةِ على الكفر[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾: (كبر) أصلٌ يدلُّ على خلاف الصِّغَر، يُقال: هو كَبير وكُبار وكُبّار، قال الله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا ٢٢﴾ [نوح: 22][2]، والكِبرُ والتَّكَبُّرُ والاستِكبارُ تتقارب: فالكِبر الحالة الَّتي يتخصَّص بها الإنسان من إعجابه بنفسه، وذلك أن يرى الإنسانُ نفسَه أكبرَ من غيره، وأعظَمُهُ التَّكبُّرُ على الله بالامتناع من قَبول الحقِّ والإذعان له بالعبادة، ومعنى قول الله تعالى: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾، أي: (فتعظَّموا فيها على أهلِها من غير استحقاق)[3].

2) ﴿يَجۡحَدُونَ﴾: (جحد) أصلٌ يدلُّ على قِلَّة الخير، يُقال: عامٌ جَحِدٌ، أي: قليل المطر، ورجلٌ جَحِدٌ، أي: فقير، وقد جحد وأجحد، فالجحد من كلِّ شيءٍ: القلَّة[4]، والجُحود: نفيُ ما في القلب إثباتُه، وإثباتُ ما في القلب نفيُه، يُقال: جَحَدَ جُحودًا وجَحْدًا، قال ﷻ:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 162، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 8.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كبر).
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 69.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جحد).

﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: 14]، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾، أي: يُنكِرونها مع علمهم بأنَّها حقٌّ[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

جحدت عادٌ بالآياتِ، واستكبروا على خلق الله، مغترّين بقوّتهمِ المَوهوبة

الآية شروعٌ في تفصيل ما حصل لقوم عادٍ بعد أن أُجمِل القول عنهم فيما مضى، فذكرتِ الآيةُ الكريمة أنَّ عادًا كانوا - مع كفرهم بالله، وجَحدِهم بآيات الله، وكُفرِهم برُسُله - مستكبرين في الأرض، قاهرين لمن حولهم من العباد، ظالمين لهم، قد أعجبتهم قوَّتُهم، فاغترّوا بها، واستعانوا بها على ظُلم العباد: ﴿وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، فقال الله تعالى؛ ردًّا عليهم بما يعرفه كلُّ أحد: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾؟ فلولا خلقُه إيّاهم؛ لم يوجَدوا، فلو نظروا إلى هذه الحال نظرًا صحيحًا؛ لم يغترّوا بقوَّتهم[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ العطف بالفاء:

بعد إجمال المَلام، جاء تفصيلُ الكلام

الفاء في قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ﴾ تفصيليَّةٌ تفريعيَّةٌ؛ لِتُفَرِّعَ التَّفصيلَ على الإجمال[3]، أي: بعد أن أُجمِلَ الكلامُ فيما مضى عن القبيلتين المذكورتين؛ شُرِع هنا في تفصيل ما يخصُّ كلَّ قبيلةٍ منهما.

بيانُ التَّعبير بـ(أمّا):

تحقيقُ مضمونِ استكبار قومِ عادٍ، والعنايةُ بخبرهم

(أمّا) حرفُ تفصيلٍ وشرطٍ، فمجيئها في قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ﴾ يعضُد معنى التَّفصيل المستفادِ من الفاء العاطفة؛ ليَدُلّانِ على الشُّروع في تفصيل مُجمَل ما كان في الآية السّابقة، ويظهر معنى الشَّرط من جملة الجواب بعده: ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾،

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 69.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 746.
(3) الشهاب، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 393.

والمجيء هنا بأداةِ التَّفصيل المتضمِّنة معنى الشَّرط دلَّ ذلك على مزيد اهتمام المتكلِّم بذلك التَّفصيل، مع تحقيق مضمونه[1].

بلاغةُ الحذف في ﴿عَادٌ﴾:

قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ﴾ هو على تقدير: (فأمّا قبيلةُ عادٍ)، أو (قومُ عادٍ)، فحُذِف المضافُ، وأُقيم المضافُ إليه مَقامَه، وفيه تحقيقٌ للإيجاز والاختصار، مع عدم الإخلال.

سرُّ البدء بقِصَّة عادٍ:

بُدِئَ بقصَّة عادٍ قبل ثمود، فقال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ﴾، وسرُّ هذا التَّرتيبِ هو كون عادٍ أسبقَ زمانًا[2]، فالتَّرتيب وجوديٌّ.

وجهُ التَّعبيرِ بالفعل (اسْتَكْبَروا):

أوثِر التَّعبيرُ بصيغة الماضي لفعل الاستكبار في قول الله تعالى: ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ للدَّلالة على تحقُّق وقوع ذلك منهم، وأنَّهم بالفعل كانوا قد اغترّوا بقوَّتهم، واستطالوا على الخلق، وكانوا في ذلك مبالغين جدًّا، وهذا سرُّ التَّعبير بالاستكبار دون التَّكبُّر، فلم يقل: (فتَكَبَّروا)، "فالسّين والتّاء فيه للمبالغة، مثل: استجاب"[3]، أو هما زائدتانِ للطَّلب، أي: إنَّهم "طلبوا الكبر، وأوجدوه"[4]، ولأنَّهم كانوا جَميعًا مُطبِقين على هذه الخصلة الذَّميمة، متآزرين في التَّخلُّق بها، والتَّعدّي بآثارها على العِباد؛ عُبِّر بالجمع: ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ﴾، وإنَّما خُصَّ من مساوئهم الاستكبارُ بالذِّكر دون غيره؛ لأنَّ تكبُّرَهم هو أصلُ مساوئهم، وهو الَّذي صرفهم عن اتِّباع رسولهم، وعن الحذَر من عقاب الله[5].

الإجماعُ على شرِّ الطِّباع دليلٌ على سوء السَّجايا وخُبثِ النّيّات

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 364.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 296.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 256.
(4) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 511.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 256.

معنى ﴿فِي﴾:

حرف الجرِّ ﴿فِي﴾ من قول الله تعالى: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ للظَّرفيَّة المجازيَّة؛ تشبيهًا لدلالة اللَّفظ باحتواءِ الظَّرف - فلا يُقصَد التَّبعيضُ الموهِم للإنقاص من ذات الشَّيء - وكأنَّ الأرض كلَّها صارت ظرفًا لاستكبارهم؛ مبالغةً في الفعل، ويجوز أن تكونَ ظرفيَّةً حقيقةً، والمراد سُكناهم.

انتَشرَ الفسادُ في الأرض بسبب استكبارِهم عليها

وجهُ التَّعبيرِ بـ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

تعريف الأرض بـ(أل) في قول الله تعالى: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يحتمل أن يكون للجنس، بقصد المبالغة في تفخيم استكبارهم، على معنى أنَّه لو وُزِّع على الأرض جميعًا؛ لوَسِعها، وقيل: هي للعهد، وهو أظهر، والمراد أرضهم المعهودة الَّتي كانوا يسكنونها[1]، أي: "الَّتي كانوا فيها بالفعل وغيرها بالقوَّة، أو في الكلِّ بالفعل؛ لكونهم ملكوها كُلَّها"[2].

موطنُ استكبارِهم الأرضُ الَّتي سكَنوها وملَكوها

معنى الباء:

الباءُ في قول الله تعالى: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ للمصاحبة، والمعنى: أنَّ الباطِلَ صاحَبَ استكبارَهم، فلم يكن علوُّهم وكِبرُهم بالحقِّ.

سرُّ إيثارِ لفظ الغيريَّة:

أوثرَتْ كلمةُ (غير) على كلمة (دون) ونحوها في قول الله تعالى: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾؛ لأنَّ المقصودَ الدَّلالةُ على تعاظُمِهم النّاتجِ عن تكبُّرهم، فكلمة (غير) تدلُّ على مُطلَق المُغايَرة، سواءً بالاستعلاء أو بالدّونيَّة، بخلاف (دون)، فهي مُشعِرةٌ بالمغايرة، لكن مع مصاحبة معنى الدّونيَّة، فمعنى قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ

استكبارُ الكافرين في الأرض بغيرِ استحقاقٍ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 256.

(2) الشربيني، السراج المنير: 3/ 511.

﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾، أي: فتعظَّموا فيها على أهلِها، واستعلَوا فيها، واستولَوا على أهلِها بغير استحقاقٍ للتَّعظُّم ولا للولايةِ[1].

معنى القَيدِ ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾:

ليس للإنسان الضَّعيف أن يستكبر في الأرض

تقييد الاستكبار في قول الله تعالى: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بكونه ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ هو قيدٌ مطابِقٌ للواقع؛ إذِ استكبارُ الخلقِ لا يكون أبدًا بحقٍّ، بل بادِّعاءٍ باطل، وإنَّما نصَّ عليه مع كونه في الواقع لا يكون إلّا كذلك زيادةً في تشنيع استكبارهم، فجميع الأمور المغريات بالكبر من العلم والمال والسُّلطان والقوَّة وغير ذلك لا تبلغ الإنسانَ مبلغَ الخلوِّ عن النَّقص، وليس للضَّعيف النّاقص حقٌّ في الكِبْر[2].

دلالةُ العطف بالواو:

ذُكِرَ قولُهم المُنكَر لبيان مَنشَأِ التَّكَبُّر

الواو في قول الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ عاطفةٌ للجملة بعدها على جملة: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾، والجملة المعطوفة بيانٌ للمعطوف عليها، أي: هذا القولُ بيانٌ لاستكبارهم[3]، فاغترارُهم بقوَّتهم كان سببَ استكبارهم في الأرض، وفي هذا العطف بالواو - المقتضي المغايرةَ مع كون الجملة الثّانية بيانًا للأولى - إشارةٌ إلى استقلال قولهم هذا بكونه موجبًا للإنكار عليهم؛ لأنَّ قولهم ذلك هو بمفرده منكَرٌ من القول، فلذلك عُطِف على فعل الاستكبار بالواو؛ لِما يقتضيه العطف من المغايرة بينهما[4].

دلالةُ صيغةِ فعلِ القول:

تحقُّقُ صدورِ القول من الجميع فعلًا أو موافقةً

عُبِّر بفعل القول ماضيًا في قول الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾؛ لتحقُّق وقوع ذلك القول منهم، وصُدوره عنهم، ودلَّت واو

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 8، وشيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 374.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 256.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 141.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 256.

الجماعة فيه على إطباقهم عليه، وكأنَّهم جميعًا قالوا بصوت واحد: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾؟ وإن احتمل أن يكون صدورُه قد وقع من الزُّعماء فقط، فالَّذي لا ريب أنَّ بقيَّتَهم كانوا موافقين عليه.

بلاغةُ الاستفهام بـ﴿مَنْ﴾:

من كِبْرِهم نفَوا أن يكون أحدٌ أشدَّ منهم قوَّةً

﴿مَنْ﴾ في قول الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ اسمُ استفهام يُسأل به عن العاقل، وهو هنا استفهامٌ إنكاريٌّ، متضمِّنٌ معنى النَّفي، أي: إنكارَ الوقوع، والمراد: (لا أحدَ أشدُّ منّا قوَّةً)، وهذه الجملة المحكيَّة: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ تطوي وراءها قدرًا من الغضب[1] الَّذي واجهوا به نبيَّهم هودًا ﷺ حين دعاهم إلى عبادة الله وحدَه، وحذَّرهم من وقوع العذاب المُهلِك بهم.

سرُّ إيثارِ الوصفِ بـ﴿أَشَدُّ﴾:

سببُ الإيغال في الاغترار عِظَمُ الخلق، وشِدَّة البطش

أوثِرت مادَّة الشِّدَّة على البأس في قول الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾؛ للعموم والشّيوع المستفادِ من الوصف بالشِّدَّة، الَّتي تعني الصَّلابة في كلِّ شيء، سواء في الحرب أو غيرها؛ أمّا لفظُ البأس؛ فإنَّه يكون في النِّكاية[2] والحرب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ [البقرة: 177]، وعادٌ إنَّما قالوا ذلك القولَ؛ اغترارًا بما أعطاهم اللهُ من عِظَم الخلق، وشدَّة البطش[3]، فقد حُكي أنَّه "بلغَ من قوَّتهم أنَّ الرَّجلَ كان ينزعُ الصَّخرةَ من جبل، فيقتلعها بيده"[4]، وإيغالًا في هذا الاغترار عبَّروا بصيغة (أفعلَ) التَّفضيل، الَّتي تدلُّ على الكثرة والأفضليَّة على المقابل.

فائدة التَّعبير بشِبهِ الجملة ﴿مِنَّا﴾:

عُبِّر بشِبهِ الجملة ﴿مِنَّا﴾ في قول الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا

(1) أبو موسى، آل حم غافر وفصلت دراسة في أسرار البيان القرآني، ص: 365.
(2) الراغب، المفردات: (بؤس).
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 295.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 8.

﴿قُوَّةً﴾ وتقديمِه على ﴿قُوَّةً﴾؛ لإفادة الاختصاص، ولتأكيد إعجابهم بذواتهم، فما استكبروا إلّا لاغترارهم بما منحهم الله إيّاه من القوَّة في البدن والشِّدَّة.

علَّة تنكيرِ ﴿قُوَّةً﴾:

اجتمعت لهم كلُّ أسبابِ القوَّة، على اختلاف مظاهرها، وتنوُّعِ صوَرِها

العلَّة في تنكيرِ ﴿قُوَّةً﴾ في قول الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ هو التَّفخيمُ من شأنها وتعظيمُ أمرها، وللإشعار بأنَّه قد اجتمعت لهم كلُّ أسباب القوَّة، مهما اختلفت أنواعها، وتعدَّدت مظاهرها؛ فالمراد بالقوَّة هنا الحقيقيَّة والكنائيَّة والمجازيَّة: فاللَّفظُ مستعملٌ في حقيقته تصريحًا وكنايةً، وفي مجازه كذلك؛ لما عندهم من وسائل تذليل صِعاب الأمور لقوَّة أجسامهم، وقوَّة عقولهم[1].

بلاغةُ الاستفهام بالهمزة:

ما أعجبَ حالَ من لا يقدُر الله قَدرَه، فاغترَّ بقوَّته، وتكبَّر على عبادة ربِّه!

الاستفهام بالهمزة في قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ هو استفهامٌ تعجُّبيٌّ، لتعجيب رسول الله ﷺ وغيرِه من حال هؤلاء الحمقى[2] الَّذين بالغوا في الاغترار بقوَّتهم الممنوحة لهم من خالقهم، أو هو استفهامٌ إنكاريٌّ؛ لإنكار جهلِهم بأنَّ اللهَ أشدُّ منهم قوَّةً، فلم يكُ استكبارُهم لعدم علمهم ذلك، وإنَّما أعرضوا عن رسالة رسول ربِّهم، وعن إنذاره إيّاهم، إعراضَ من لا يكترِثُ بعظمة الله تعالى[3].

دلالةُ الواوِ في ﴿أَوَلَمْ﴾:

مقتضى العقل إدراكُ عظمةِ الخالق، وأنَّه أشدُّ قوَّةً من الخَلق

الواو من ﴿أَوَلَمْ﴾ في قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ اعتراضيَّة، أو عاطفةٌ على مقدَّر - والتقدير: (أأغفلوا، ولم يروا) - والمعطوف والمعطوف عليه مجموعُهما

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 257.
(2) الجمل، حاشية على الجلالين: 7/ 15.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 257.

اعتراضٌ[1]، على مذهب الزَّمخشريِّ في مثل هذا التَّركيب: (أولم) و(أفلم)؛ تفاديًا لتنازُع الصَّدارة بين واو العطف وهمزة الاستفهام، وفي هذه الجملة المعترِضة إفحامٌ لهم، وإخمادٌ لجذوة استكبارهم؛ لأنَّهم يعلمون أنَّ الله هو الَّذي خلقهم، وهم كغيرهم من الكفّار لم يُنكِروا ذلك، فكان ينبغي عليهم أن يَعلَموا ضرورةً أنَّ مَن خلقهم هو أشدُّ منهم قوَّةً.

نكتةُ إيثار فعل الرُّؤية:

قـوَّةُ العلم الفِطريِّ بعظَمة الخالِق كالأمر المشاهَد بالعَين

الرُّؤية في قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ هي الرُّؤية العلميَّة، والمعنى: (أولم يعلموا علمًا لا يُشَكُّ في مثله أنَّ الله الَّذي خلَقهم هو أشدُّ منهم قوَّة؟)، والتَّعبير بالرُّؤية عن العلم أسلوبٌ شائع في القرآن الكريم، ويُقصَد به عادةً أنَّ المعلوم المقصودَ في الكلام هو - من قوَّة العلم به - كالأمر المشاهَد بالعَين.

سرُّ التَّوكيد بـ ﴿أَنَّ﴾ ووجه التَّصريح باسم الجلالة:

تتابعَت المؤكِّداتُ لمواجهة سوءِ ما قالوا وما اعتقدوا

أُكِّد الكلام في قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ بـ﴿أَنَّ﴾، وباسم الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ الذي يُلقي المهابةَ في القلوب: لمواجهة كلامهم السّابق ونقضه، وهو قولهم: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، فهُم مُنكِرون لوجود أيِّ قوَّةٍ يُمكِن أن تجابههم، ولو كانت قوَّةَ الله تعالى، ولو أنَّهم قالوا: (مَن أشدُّ منّا قوَّةً في الأرض)؛ لكان أخفَّ ممّا قالوا، لكنَّهم استطالوا بهذا الكلام حتّى بلغوا به تحدّيَ قوَّة خالقهم سبحانه؛ ردًّا على هودٍ عليه السلام حين أمرَهم بعبادة الله وحده: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، فجاء هذا الرَّدُّ المؤكَّدُ لزلزلة أركانهم وهزِّ قلوبهم.

فائدةُ التَّعبير بالاسم الموصول:

الخالقيَّة دليلٌ على أنَّ الخالِقَ أقوى منهم

التَّعبيرُ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾، وإيثارُه على غيره في قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ يدلُّ على

(1) الشهاب، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 393.

أنَّهم مُقِرّون بأنَّ الله تعالى خالِقُهم؛ "لأنَّ الصِّلَةَ يجب أن تكون معلومةً لدى المخاطَب حتّى يصِحَّ التَّعريفُ بها"[1]، فهُم كانوا يعلمون يقينًا أنَّ الله تعالى خالقُهم، وهذا العلمُ كافٍ "في الدَّلالة على أنَّه سبحانه أشدُّ منهم قوَّةً، وأنَّه حقيقٌ بأن يَحسَبوا لغضبه حسابَه، فينظروا في أدلَّة صِدق رسوله إليهم"[2].

دلالةُ فعلِ الخلق الماضي:

ورد فعلُ الخلق في قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ بصيغة الماضي؛ لكَونِهم يُقِرّون به، ولا يُنكِرونه، فهو يحاكمهم إلى ما يعترفون به من أدلَّة القدرة الإلهيَّة، وهو عندهم بمنزلة البَديهيّات.

بلاغةُ عَودِ الضَّمير في ﴿خَلَقَهُمْ﴾:

كيف يتكبَّرون بقوَّتهم على الله، وهو خالِقُهم؟.

خُصَّ في حَيِّز الصِّلة من قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ ذِكرُ وقوع الخَلق على أنفسهم، لا على السَّماوات أو الأرض أو غيرهما من مخلوقات الكَون؛ لادِّعائهم الشِّدَّة في القوَّة، ففي تخصيصهم بالذِّكر ضربٌ من التَّهكُّم بهم[3].

نكتة إقحامِ ضميرِ الفصل:

أُقحِم ضميرُ الفصل ﴿هُوَ﴾ في قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾؛ لإفادة "تقويَة الحكم بمعنى وضوحه، وإذا كان ذلك الحكمُ محقَّقًا؛ كان عدمُ علمهم بمقتضاه أشنعَ، وعذرُهم في جهله منتفيًا[4].

(1) أبو موسى، آل حم غافر وفصلت ص: 366.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 257.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 364.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 257.

توجيهُ استخدامِ أفعل التَّفضيل:

قـوَّةُ الله تعالى واسعةٌ مُطْلَقة، لا شـريـكَ يـشـاركـه في الاتِّصاف بها

استُخدِمت صيغةُ أفعل التَّفضيل من شِدَّة القوَّة في قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾، وهي صيغة تجري بين شيئَين، لأحدهما مع الآخر فضلٌ وتميُّز، والتَّفضيلُ على بابه باعتبار القَدرِ المُشتَرك بين القوَّتَين في اللَّفظ والمعنى، مع ما بينهما من التَّبايُنِ في الأوصاف والخصائص، فكما يوصَف الله بالعلم، فكذلك الإنسانُ يوصف بالعلم[1]، أو التَّفضيلُ هنا ليس على بابه، باعتبار أنَّ قوَّةَ العبد متناهيةٌ، وقوَّةَ الله لا نهايةَ لها، والمتناهي لا نسبةَ له إلى غير المتناهي، فالله تعالى أشدُّ قوَّةً بلا أدنى نظرٍ إلى أيِّ قوَّةٍ أخرى، كما يُقال: الله أكبر، ولا كبيرَ سواه[2].

سرُّ التَّعبير بشِبه الجملة:

اللـهُ أشـدُّ قـوَّةً مـن كُـلِّ متكبِّرٍ يـدَّعـي شِـدَّةَ القوَّة

الضَّميرُ المجرور بـ(مِن) في قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ يعود إلى قوم عاد، فالكلام عنهم، والرَّدُّ إنَّما كان على قولهم مستكبرين: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، فجاء الرَّدُّ مطابقًا لمقتضيات دعواهم، فقوله تعالى: ﴿أَشَدُّ مِنْهُمْ﴾، أي: ومن غيرهم، لكن لأنَّه لم يجترِئْ أحدٌ بمثل ما اجترؤوا عليه في هذه الدَّعوى، ولأنَّ سياقَ الكلام فيهم، خُصّوا بالكلام في الجُملة.

دلالةُ الواو:

الواو في قول الله تعالى: ﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ عاطفةٌ للجملة بعدها على جملة: ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ﴾، كجملة: ﴿وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، وما بينهما اعتراضٌ للرَّدِّ على كلمتِهم الشَّنعاء[3].

دلالةُ فعلِ الكَينونة:

الـجـحـودُ طبعٌ وسجيَّة فيهم

يدلُّ التَّعبيرُ بفعل الكينونة في التَّذييل: ﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 295.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 552، وشيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 374.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 8.

على أنَّ الجحودَ فيهم طَبعٌ، وأنَّ التَّكذيبَ متأصِّل فيهم[1]، فلفظة (كان) في كثير من الاستعمال تُشعِر بالمداومة[2]، والمداومة على الشَّيء تكسبه تجذُّرًا في الطبع، فقومُ عادٍ لكثرة تكذيبهم بآيات اللّه؛ صار هذا الجحودُ فيهم أصلًا وطبعًا.

سرُّ التَّعبيرِ ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾:

جَحَدوا بآياتِ الوحيِ الجليلة، وآياتِ الكَون العظيمةِ

الآياتُ في قول اللّه تعالى: ﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ يُمكِن حملُها على الآيات التَّنزيليَّة أو الآيات الكونيَّة، والجمع بينهما أولى، فالمراد بالآياتِ هنا التَّنزيليَّةُ الَّتي فيها الخطاب الإلهيُّ الَّذي جاء به الرُّسُل، والكونيَّةُ الَّتي هي دلائلُ وحدانيَّةِ اللّه تعالى وقدرته؛ وهذا يفسِّر مجيئَها مجموعةً، وأمّا إضافتُها إلى ضمير العظَمة الإلهيَّة ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾؛ فإنَّها دالَّةٌ على عظَمتها وشرَفها، فالمضافُ إلى العظيم عظيم.

نكتةُ إيثارِ الفِعلِ ﴿يَجۡحَدُونَ﴾:

أظهروا التَّكذيبَ والعِنادَ والعُدوان، وأبطَنوا اليقينَ بأنَّه الحقُّ من ربِّهم

الجُحود هو نفي ما في القلب إثباتُه، وإثبات ما في القلب نفيُه[3]، ومعناه في قول اللّه تعالى: ﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ إظهارُ خلاف المعتقَدِ الكائن في القلب، بتكذيبِهم بآيات اللّه، وظلمِهم لرسولهم عليه السلام، حين قالوا: ﴿يَـٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ﴾ [هود: 53]، فقد كانوا موقِنين بباطلهم وبأنَّهم جاحدون غيرُ مُحِقّين فيما أظهروه من تكذيبٍ وعدوان، وأوثِر التَّعبير عن جحودهم بصيغةِ المضارع؛ للدَّلالة على أنَّ الجحود منهم كان متكَرِّرًا متجدِّدًا[4]، وأمّا مجيئُه مجموعًا؛ فإنَّه دالٌّ على أنَّ جميعَهم كانوا جاحدين، ولذا عاقبهم اللّه جميعًا بهلاك الاستئصال.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 258.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 259.
(3) الراغب، المفردات: (جحد).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 258.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

القوَّةُ والقُدرةُ والتَّمكينُ والاستطاعة:

القوَّة خلافُ الضَّعف[1]، وتكون في البدن، وتكون في القلب، أي: بإمكان حملها على القوَّة البدنيَّة، أو على القوَّة المعنويَّة، ومعناها في قول قومِ عادٍ: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ قوَّةُ البدن؛ إذ بها يتمكَّن الحَيُّ من مزاولة الأفعال الشّاقَّة.

القـوَّةُ أنسـبُ لمقـام الاغـترار والاستـكبـار، وألـيـقُ بوصف المَلِك الجبّار

ومِن لازم القوَّةِ القدرةُ، فهي أخصُّ من القوَّة، فناسبَ استعمالُ القوَّةِ في الآيَة لِتَضَمُّنِه القُدرةَ، لا العكس.

وأمّا الاستطاعة؛ فهي من الطّاعة بمعنى الانقياد، فيقال: طاعتْ جوارِحُه للفعل، أي: انقادت له، ولهذا لا يوصَف اللّٰه تعالى بها[2]، فلا يُقال: إنَّه مستطيع، في حين يوصف بأنَّه قويٌّ، وأنَّه قادر.

والتَّمكين مأخوذٌ من الفعل (مكن) بمعنى القرار في المكان، ومنه المُكُنات، وهي: أوكارُ الطَّيرِ[3]، وهو معنًى أضيَقُ من معنى القوَّة، كما أنَّه يُشعِر بأنَّه لا يتحصَّل على التَّمكين إلّا بمُغالَبَةٍ ومساعدة؛ إذ يُقال: تمكَّن من كذا، أي: سَيطَر عليه مغالَبةً لخصمه، أو مكَّنتُه من كذا: إذا ساعدته للحصول عليه، وكلا المعنيين غيرُ مُرادٍ في لفظَي (قوة) الواردِ في الآية مرَّتَين.

فالتَّعبير الأنسبُ بالمقام والسّياق هو التَّعبير بلفظِ القوَّة محمولًا على القوَّة البدنيَّة في وصفِ قومِ عادٍ، وعلى القوَّةِ الإلهيَّة المُطلَقة في الجملة الثّانية.

الجَحدُ والإنكار:

الجَحدُ أخصُّ من الإنكار، وذلك أنَّ الجحد إنكارُ الشَّيء

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قوي).
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 47.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مكن).

الجُحودُ إنكارُ أمرٍ ظاهرٍ عن يقينٍ وعلمٍ وإصرارٍ

الظّاهر، كما في قول الله تعالى: ﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾؛ إذ جعل الجَحدَ ممّا تدلُّ عليه الآيات، ولا يكون ذلك إلّا ظاهرًا، وقال تعالى: ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل: 83]، فجعل الإنكار للنِّعمة؛ لأنَّ النِّعمةَ قد تكون خافيةً، ويجوز أن يُقال: إنَّ الجحدَ هو إنكارُ الشَّيءِ مع العلم به، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾ [النمل: 14]؛ إذ جعل الجحد مع اليقين، والإنكار يكون مع العلم وغير العلم[1].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 157.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والخمسون،
سورة غَافِر من الآية 77 إلى سورة الشُّورى الآية 12
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والخمسون، سورة غَافِر من الآية 77 إلى سورة الشُّورى الآية 12
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 52 ، 818 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-641-48-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 52 : المجلد الثاني والخمسون، سورة غَافِر من الآية 77 إلى سورة الشُّورى الآية 12.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-641-48-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0346315 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"